ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

تأثير الحملة التّنصيريّة على اليتامى الجزائريّين خلال مجاعات 1867-1868 "منطقة الشلف أنموذجا".

The Impact of the Missionary Campaign on Algerian Orphans during the 1867-1868 Famine - Chlef Region as a Model-

صص180- 196

د. العربي بلعزوز
Dr Belazzouz Larbi
أستاذ محاضر "أ" . تخصّص: التّاريخ الحديث والمعاصر
كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة – جامعة: حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)
belaz216@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال:2019/01/12 تاريخ المراجعة: 2019/02/11 تاريخ القبول:2019/05/11

ملخص: اقترنت المجاعات التي شهدتها الجزائر خلال النّصف الثّاني من ستينيّات القرن 19م بشخصية (الكاردينال لافيجري) الذي وظّف بعض إفرازات تلك المجاعات وما انتهت إليه من مآسي، في مقدِّمتها الأطفال اليتامى بعد أن حصد الموت الأغبر أولياءهم، فالصورة التي بقيت عالقة في ذاكرة العارفين بأمْر تلك المجاعة هي لذلك الكاردينال وهو يجوب الجزائر حاملا الصّليب في يمينه والخبز في يساره يدعو إلى المسيحيّة، ولكن دون أن نعرف بمعطيات دقيقة حجْم وتأثير تلك الحملة الصليبيّة التي استهدفت هؤلاء الأبرياء، ودون أن نتمكّن من حصْر مدى تأثيرها جغرافيا.

إنّ هذه الدّراسة جاءت لتجيب عن هذا وذاك من خلال وثائق رسميّة تضمّنت أرقاما دقيقة عن الحجم والمكان، ولتضع كلٌّ في موضعه الحقيقي: فهي ترسّخ فكرة أنّ (الكاردينال لافيجري) لم يكن له في الجزائر خلال فترة الدّراسة ذلك التّأثير الواسع، وتؤكّد في ذات الوقت تجذّر، وترسّخ الدّين الإسلامي في المجتمع الجزائري إلى درجة لم يجد معها أيّ خطابٍ مسيحي من أيّ كان، حتّى في أصعب وأشقّ الظروف.

الكلمات المفتاحيّة: المجتمع الجزائري؛ المجاعات؛ الضحايا؛ اليتامى؛ الكاردينال لافيجري؛ المسيحيّة؛ منطقة الشلف؛ الجزائر.

***Abstract**: The famine that reigned in Algeria During the second half of the 1860s was linked to (Cardinal Lavigerie), who had used the secretions of these famines and the tragedies he caused, especially the orphans after the death of their parents. The image that remains engraved in the memory of those who*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

know this famine is that of this cardinal, carrying the cross on his right and the bread on his left calling to Christianity, but without knowing the exact magnitude and impact of the crusade that aimed at these innocent people, and without being able to limit its geographical impact.
This study came to answer his two questions by means of official documents, containing precise figures on the size and the place, to put everyone in his real place. It is established that Cardinal Lavigerie did not have in Algeria during the study period, a widespread influence; while emphasizing rooting and anchoring of Islam in Algerian society, to such an extent that no Christian speech or project works, even under the most difficult circumstances.
***Keywords**:Algerian Community; Famine; Victims; Orphans; Cardinal Lavigerie; Christianity; Chlef region; Algeria.*

مقدمة: لم تبق عملية التّنصير في الجزائر خلال الفترة الاستعماريّة مقتصرة على شعارات مسيحيّة نظرية فحسب، فبالإضافة إلى الدّور الذي أنيط بالبعثات التّبشيريّة في البداية، باشرت الهيئات الكنسَيّة في الجزائر، مستغلّة بعض الظروف التي أوجدتها مختلف السّياسات الاستعماريّة الظالمة لمباشرة عملية تنصير واسعة بعد مجاعات 1867م-1868م التي شهدتها البلاد، مستغلّة ما نتج عنها من شدائد ومصائب على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والصّحّي للقيام بحملات خيريّة، خاصّة لفائدة الأطفال اليتامى لسلخهم عن المجتمع الجزائري المسلم، وتحويلهم إلى نصارى.

لم تبق هذه العملية مجرّد شعارات فحسب، لأنّ هذه الدّراسة تحمل عيّنة من أطفال جزائريّين يتامى تمّ احتضانهم (بعد تلك الظروف القاسيّة)، وتربيّتهم على الدّين والثّقافة المسيحيّة إلى أن تمّ تعميدهم، وتغيّير أسمائهم بصفة نهائية، وكانت هذه العيّنة من منطقة الشلف بالخصّوص؛ لأنّ المركز الذي أقيم بضواحي المدينة، كان نشطا وفعّالا بشهادات رسمية، وكان إلى غاية سنة 1876م الوحيد الذي تمكّن من استكمال كلّ مراحل التّحوّل الدّيني والثّقافي لهؤلاء اليتامى.

تهدف هذه الدّراسة إلى إزالة تلك الضبابيّة والإبهام بشأن الموضوع، وتأكيدالواقع الحسّي الملموس من خلال إثارتها للإشكاليّة التّاليّة: إلى أيّ نتيجة انتهت الحملة الصليبيّة التي استهدفت الأطفال اليتامى في الجزائر على إثر مجاعة سنة 1867م-1868م؟، وما هي المناطق التي كانت الأكثر عرضة لذلك؟ .

البعد الدّيني للمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر: لم يخْل البعد الدّيني من الأهداف الفرنسيّة الإستعماريّة للجزائر منذ البداية، وحتّى قبل الاحتلال؛ حيث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنّ اجتماع الأميراليّة الذي انعقد سنة 1828م بغرض دراسة خطّة إنزال محتمل للقوات الفرنسيّة على السّواحل الجزائريّة، والذي ترأسّه الكونت "دو شابرول" (Comte de Chabrol) وزير البحريّة، كان "دي فريسينوس" (de Frayssinous) وزير الأديان من الحاضرين أيضا، وخلاله لم يُخْف هذا الأخير إعجابه وتأيّيده، وتحمّسه للمشروع[1]، بالإضافة إلى أنّ (الملك شارل العاشر) طلب من كلّ الكنائس في المملكة وخارجها أن تصلّي، وتطلب دعم السّماء لإنجاح الحملة[2]، وبعد تحقيق ما رُسِم من أهداف، قرّرت الكنيسة أن يُؤدَّى النّشيد المسيحي القديم الخاص بالمناسبات والأعياد والانتصارات (Te Deum)، في كلّ الكنائس التّابعة للأسقفيّة بعد أن بات الصليب يرتفع على شواطئ الجزائر[3]،وهو ما يعني أنّ الحملة الفرنسيّة على الجزائر سنة 1830م كانت لها خلفيّة دينيّة أكيدة.

لقد هلّلت الكنيسة الكاثوليكيّة بشكل عام بسقوط المحروسة، وجاء على لسان رئيس أساقفة مدينة (آكس اون بروفانس) في العاشر من جويليّة 1830م ما يلي: " إنّ أمنياتنا وصلواتنا قُبلت، فأعداء فرنسا والمسيحيّة هُزموا، هؤلاء الذين كانوا يريدون رمْيَنا في البحر وإبادتنا بالسّيف قد هُزموا، وتشتّتوا كالغبار في الحقول... والعلَم الفرنسي يرفرف منذ خمسة أيّام على أسوار مدينة الجزائر"[4].

لم يكن هذا التّعليق حالة شاذّة؛ بل جاء على شاكلة كلّ الخطابات التي تردّدت في كلّ الكنائس الفرنسيّة، وحتّى خارجها، فها هو رئيس أساقفة مدينة (ديجون) الفرنسيّة يتحدّث عن "نهوض الصليب أخيرا على الشّواطئ الجزائريّة"، كما ذكر بأنّ "الصليب هو رفيق العلَم الفرنسي ملازم له، ولا يفترق عنه[5]". ولعلّ الملفت للانتباه هو أنّ الملك (شارل العاشر) بسبب مشاكله السّياسيّة عمل على استثمار هذا الانتصار العسكري على المحروسة لتأمين استقرار سياسي لبلاده؛ لذلك طلب من كلّ الأساقفة بفرنسا في رسالة إليهم كُتبت في قصر (سان كلو) بتاريخ العاشر من جويليّة 1830م للقيام باحتفالات دينيّة بحضور كلّ السّلطات المدنيّة والعسكريّة المحلّيّة. وبذلك شاركت الكنيسة عن قصْد، أو دونه، في تحريض العساكر على السّكان المحلّيّين بالجزائر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

لقد تكرّر ذات الأمر بمناسبة انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847م، حيث أصدر أُسْقف الجزائر قرارًا يقضي بترديد الصلوات والأغاني الدّينيّة في كلّ الكنائس بالمستعمرة، بالإضافة إلى صلاة عسكرية (تقوم بها الجيوش الفرنسيّة التي كانت بالجزائر)، وطلب من كلّ السّلطات أن تمنح هذا الحدث الأهميّة اللاّزمة[6].

إنّ تفسير هذه الفرحة المسيحيّة العارمة نجدها لدى ذات القسّ نفسه؛ حيث وصف الأمير عبد القادر قبل ذلك (بيوغرطة) الجديد إلى أن يقول: "دعونا نفرح في حدثٍ يجعل قلب الملك يرتعش ... إنّه سيعزّز السّلام، ويضمن الأمن، ويعطي للزّراعة والتّجارة آفاقا جديدة من الرّخاء، كما سيتيح الجمع بين الأعراق، وسيُمكنّنا من استقطاب سيول من السّكان، ويفتح للدّين وللمستعمرة معا آمالا أكثر روعة؛ لأنّ الذي سقط ليس رجلا فحسب، إنّه عَلَم، إنّه مبْدَأ"[7].

لقد كانت فرحة الفرنسيّين عارمة، جيشا وإدارة وكنيسة، بسقوط مشروع دولة الأمير عبد القادر، الأمر الذي جعل هؤلاء الغزاة يظنّون بأنّ الجزائر وشعبها ستصبح فريسة سهلة وسائغة لهم ولمشاريعهم الإقتصاديّة والدّينيّة وغيرها، ولكن في الوقت الذي كان فيه مبعوث الحكومة الفرنسيّة إلى الجـزائر يجرّب زراعة الكروم في المستعمرة، على بُعد أيّام فقط من عملية التّسليم تلك، اصطدم منذ البداية بترحيب رهيب من الأمير عبد القادر، الذي أعطى تعليماتًا لقادته بانتزاع كلّ ما زُرع في اليوم من سيقان ذلك النّبات [8]، وهو ما يعني أنّه كان شديد القلق على مستقبل البلاد والعباد معا، وعلى دراية بما ستؤول إليه الجزائر إنْ انتشرت بها تلك الزّراعة، ممّا يعني أنّ الأمير عبد القادر وإنْ كان قد أُبعد عن بلاده، إلاّ أنّ روحه وظلّه لم تفارقانه أبدا وهو ما منح الجزائريّين الإرادة والقوّة والثّبات لمواصلة مسيرة النّضال والكفاح لردّ المحتلّ ومشاريعه.

استعملت الإدارة الاستعماريّة رجال الكنيسة منذ البداية لدعم ومساندة الحركة الاستيطانيّة، وكان الحاكم العام (بيجو) أبرز من سعى لذلك بمنْحه للرّهبان (التّرابيست) بتاريخ 11 جويلية 1843م المُخيَم العسكري المهجور (بسطاوالي) ومساحة 1020 هكتار من الأراضي[9]، وكتب (بوديكور) سنة 1856م عن المغزى الحقيقي من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلك العمليّة قائلا: "وطّن بيجو هؤلاء للقيام بأعمال خيريّة مختلفة لفائدة"الأهالي" خدمة للكولون؛ لأنّه بذلك، حسب رأيّه، يضمن لهم أمن وسِلْم العرب[10].

ومن خلال احتكاك هؤلاء الرّهبان وغيرهم بالمجتمع الجزائري تولّدت لديهم قناعة أنّ الإسلام لدى الجزائريّين راسخ ومتجذّر[10]وهو بذلك سيشكّل العقبة الأساس أمام المشاريع الاستعماريّة، ولذلك راحوا يتحيّنون كلّ الفرص للنّيل قدْر الإمكان من ذلك المُعتقد، ونحن لا نبالغ إنْ قلنا بأنّ الوضعيّة التي آل إليها المجتمع الجزائري من فقر وحرمان ومجاعة وسقم هي من صنيع الاستعمار ذاته، ولكن لا نذهب إلى حدّ القول بأنّ الهدف من ذلك كان توفير مناخ ملائم لنشر المسيحيّة، بقدر ما كانت منظومة استعماريّة شاملة قائمة على التّسلّط والنّهب والعنصريّة والاستعلاء والتّهميش.

السّياسة الاستعماريّة وتراجع المستوى المعيشي للسّكان: منذ سنة 1834م بات واضحا بالنّسبة للإدارة الاستعماريّة في باريس بأنّ الجزائر هي صيد ثمين لا يجب التّفريط فيه، وأنّ ذلك يسترعي إلحاقها رأسا بالميتروبول (1848م)، ولكن قبل ذلك أدركوا بأنّ مشاريعهم المختلفة لن تتحقّق إلاّ بهجرة فرنسيّة وأوربيّة كثيفة للمستعمرة الجديدة؛ لإرساء قاعدة سكانيّة متينة تدعّم وتساند وتُريح في ذات الوقت الجيش الفرنسي في البلاد.

ولم يكن للشّعب الجزائري أيّ موقع، أو مكانة في هذا التّصوّر الاستعماري للأمور؛ فالاستيطان يسترعي حيازة أراضي زراعيّة واسعة وخصبة التي هي مِلك للجزائريّين في الأصل، ودونما حرج راحت السّلطات الاستعماريّة تُصدر مجموعة من القوانين؛ لكي تُضْفي صبغة الشّرعيّة على تجاوزاتها تصبّ جميعها في اتّجاه انتزاع الأراضي من الجزائريّين وتمليكها للأوربيّين.

وبعد هذه التّجاوزات والانتهاكات بدأ التّحوّل الاقتصادي والاجتماعي العميق للجزائريّين، حيث فقد أصحاب الأرض القاعدة الأسّاسيّة التي يقوم عليها اقتصاد جلّ الأُسَر المحلّيّة، وكانت تلك التي حُوّلوا إليها عنوة، لا تفي بالغرض لرداءة تربتها وصعوبة استغلالها، هذا بالإضافة إلى أنّ سياسة الاعتداء والتّفقير طالت أيضا رؤوس الماشيّة المختلفة التي صودرت بشكل كثيف، خاصّة في الثّلاثة عقود الأولى من الاحتلال،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علاوة على اتّباع سياسة الأرض المحروقة التي استهدفت قطْع الأشجار المثمرة في المناطق الثّائرة، وبذلك بات المجتمع الجزائري قاب قوسين، أو أدنى من مجاعة رهيبة، خاصّة إذا علمنا بأنّ تلك الأراضي الرّديئة التي تُرِكت للسّكان المحليّين، لم تعُد تُنتج خلال فترات الجفاف ما يكفي الأُسَر إلاّ لشهور قليلة فقط، وبذلك بدأت تبرز مع منتصف ستينيّات القرن 19م ملامح مجاعة مرعبة وقاتلة.

مجاعة 1867م-1868م، وآثارها على منطقة الشلف: ذكر العنتري أنّ "مجاعات كثيرة وقحط حادّ شهدته الجزائر خلال الفترة الاستعماريّة، تركت آثارها السّيّئة على سكان قسنطينة وأعمالها، ويضيف أنّه من الآثار التي خلّفتها تلك المجاعات والقحط انتشار الأوبئة الفتّاكة بينهم كالكوليرا والتّيفوس وغيرها، وضياع الثّروات المدّخرة، وبيع العقارات والأراضي بسبب الضغوطات المختلفة التي أحاطت بهم، ومنها الدّيون التي تراكمت عليهم من الضّرائب العقاريّة غير المدفوعة، وفوائد القروض الرّبويّة التي كانوا يلجؤون إلى أخذها من البنوك والمُرابين اليهود وغيرهم"[(12)].

وبما أنّ قسنطينة خلال الفترة الاستعماريّة لم تخضع إلى نظام إداري وعقاري خاصّ؛ بل كانت إحدى العمالات الفرنسيّة في الجزائر بحُكم تقسيم سنة 1848م، فإنّ ما كان يحلّ بها كان يلمّ بالعمالات الأخرى أيضا من دون شك، إنْ نحن استثنينا المعطيات المتصلّة بالجوائح: كالجراد، الفيضانات والفتن التي كانت تصيب جهة دون غيرها من الجهات، مع أنّ المؤثر الأساس خلال هذه الحقبة بقي هو المحتلّ وسياساته الظالمة.

وما ذكره العنتري بشأن أزمة سنوات 1866م-1868م؛ كونها كانت "أعظم أزمة بالقياس مع التي قرأ عنها وعايشها، وذكر لها أسبابا تمثلّت في:

-حدوث الجوائح التي نزلت بالزّرع والنّباتات، وأتلفتها.

-انتشار مرض "الرّهمة" الذي أهلك المواشي سنة 1867م من قلّة عَلفها، وتِبْنها في فصل الشّتاء.

-زحف الجراد على القطر سنة 1868م، وما أحدثه من تلَف بالزّروع والأشجار التي تسبّبت في انعدام الحبوب بالأسواق وموت المواشي وارتفاع أسعار الحبوب ارتفاعا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فاحشا طيلة ثلاث سنوات، بالإضافة إلى انتشار وباء الكوليرا والتّيفوس وغيرهما من الأمراض الفتّاكة، وكذا ضياع الأملاك والثّروات"[13].

ووصف (العنتري) هوْل "المجاعة السّوداء" كما سمّاها، أو أزمة النّصف الثّاني من ستينيّات القرن 19م بقوله: " وفيها أشرف النّاس على الهلاك الأليم، والبلاء العظيم، بحيث أنّه لم يُسمع في الزّمان بمثلها، وقد حصل فيها لضعفاء عامّة الخلق؛ بل ولكثير من خواصهم أيضا بادية وحاضرة من التّشتّت والفناء، وأكْل الحشيش ونحوه"[14]. وخلالها صار جلّ المتضرّرين يُقْدِمون على الإقتتات ممّا تعافُه النّفس البشريّة، ويحرّمه الشّرع كأكل القطط والدّم والميْتة وغير ذلك من المحرّمات المستقْذرة ..." إلى أن يقول: " فالغنيّ من أهلها (قسنطينة) أفقرته، وصيّرت أحواله ضيّقة وحرجة، والضعفاء قد أهلكتهم في حينهم، ودمّرتهم تدميرا، وما ترك الزّمان بعدهم إلاّ مراسم ديّار خالية"[15].

إنّ الصورة التي تناقلتها بعض المصادر الفرنسيّة عن بعض الجهات بمنطقة الشلف حول مجاعة 1867م وآثارها أكّدت ما ذكره العنتري عن قسنطينة، وهو ما يعني أنّ الوضع كان عامًّا بالفعل؛ حيث ذكر (الكاردينال لافيجري) عيّنة عن بعض جهاتها، فأورد استنادًا إلى رسالة من أحد رجال الدّين ببلدية (سيدي عكاشة) 5 كلم إلى الجنوب من تنس تقول: " إنّني وسط العرب، وكلّ يوم يأتون إلى بيت القسّ بأعداد تتراوح بين 15 إلى 20 فرد، أمْنحهم جميعا قطعة خبز؛ لكي لا يموتوا جوعا، ولكن المؤسف هو رؤية النّساء وهنّ يحملنّ على ظهورهنّ أطفالهنّ، وهُنّ أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء، هؤلاء البؤساء محكوم عليهم بالموت؛ لأنّ أمّهاتهم لن تقدِّم لهم سوى أثداءً جافة بسبب الجوع[16].

كما أنّ المعلومات التي وردت إلى (لافيجري) من أسقف مدينة (تنس) كانت أكثر حزنًا: " لقد شاهدنا في شوارع تنس نسوة وهنّ يلتقطنّ بعض الحبوب غير المهضومة العالقة في روْث الأحصنة، وغسْلها وأكْلها بعد ذلك، كما أنّ الأطفال ينافسون الكلاب على بعض العظام المتواجدة في فضَلات بعض المنازل"[17].

لقد ساق القدَر إلى سكان تنس خلال شهر جانفي السّفينة اليونانيّة (الإخوة الثّلاث)،التي تحطّمت بالقرب من رصيف تنس، حيث كسّرت موجات قويّة ألواحها؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ممّا تسبّب في تسرّب عدّة قناطر من القمح دفعت بها الأمواج إلى الشّاطئ، وهو ما أتاح للسّكان التقاط أكبر قدر منها، حتّى وإن كانت ممزوجة بالرّمال ومياه البحر، وساهم ذلك فعلا في توفير بعض الغذاء لقسم من سكان المنطقة[18].

كما أنّ الأخبار التي أوردها قسّ (مليانة) ليست أقلّ قلقًا:" بعد ما أحدثه وباء الكوليرا من خسائر بشريّة انتهت مع الأيّام الأولى من شهر أكتوبر 1867م، فجأة لاحظنا في شوارع المدينة عددًا كبيرًا من الأهالي من كلّ الأعمار ومن الجنسين، منهم من يطْلب خبزا.... والأكثر جوعا منهم كانوا يسارعون إلى التّنافس على فضلات بيوت الأوربيّين ...".

و ساق أسقف بلدية(خميس مليانة) بدوره نماذجًا أخرى في رسالة منه إلى لافيجري، مِن بين ما جاء فيها: " نجد كلّ يوم جُثثًا على الطريق، وفي الخنادق والأوديّة مزّقتها أنياب الضّباع وابن آوى[19]. كما أورد لافيجري أيضا رسالة كتبت في 6 أفريل 1868م أشار صاحبها إلى إرساله لبعض المساعدات إلى بعض المناطق في كلٍّ من (الشلف، بوغار، مليانة، المديّة، وسور الغزلان) التي كانت تعاني أكثر من المجاعة، كما نقل لافيجري فيما كتبه خبرا بوفاة 1500م شخص في ظرْف 29 يوما فقط بمنطقة تنس[20].

وجاءت ملاحظات (الأبّ بوزي) في ذات السّياق أيضا، ذاكرًا بأنّ عدد الضحايا بالشلف بلغ خلال شهرين فقط 400 شخص، وذلك داخل أصوار المدينة فقط، أمّا عدد الضحايا خارجها، فلا يمكن حصْره بسبّب كثرته[21]، كما أدرج (بوزي) مثالا عن أحد القيّاد الذي كان عدد من يُشْرف عليهم 35000 قبل المجاعة، ليصل بعدها إلى 21000 فقط[22].

و كتب(بول بلان) أنّ جريدة "لومونيتار دالجيري" (le Moniteur d'Algérie) تكتّمت عن ضحايا الفترة الممتدّة من شهر أكتوبر إلى نهاية ديسمبر 1867م، واكتفت بذكر إحصاء لعددٍ الضحايا خلال الفترة الممتدّة من بداية سنة 1868م إلى غاية شهر أفريل منها فقط، وبلغ ذلك العدد 128812 ضحيّة في العمالات الثّلاث[23]، وإنْ نحن اعتبرنا هذه الأرقام صحيحة، فهذا يعني أنّ عدد الوَفَيات من المجاعة خلال 24 شهر ، أو أكثر فاقت 750 ألف شخص.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلاّ أنّ (بول بلان) أورد الأرقام الرّسميّة المصرّح بها عن عدد الوفيات بالجزائر، والتي جاءت على الشّكل التّالي[24]:

- 1867م: 89000 ضحيّة،
- 1868م: 128000 ضحيّة.

ولم يكتف (بلان) بسرْد الأرقام الرّسميّة فحسب؛ بل علّق عليها بكلّ جرأة ، فبالاعتماد على ما أوردته الإدارة من أرقام، بلغ عدد الضحايا من 1 جانفي إلى 1 ماي 1868م: 128000 ضحية (بمعدل 1000 شخص يوميًّا)[25]، وهو ما يمثل عُشر(1/10) السّكان، ثمّ قال عنها: "أنّها تقليص، فضِيع للعدد، وتزوير للحقائق؛ لأنّها قليلة جدًّا بالمقارنة مع الواقع، ثمّ أشار في هامش ذات الصفحة إلى أنّ الإحصائيّات الرّسميّة لسنة 1872م سجّلت تراجعًا في عدد سكان الجزائر المسلمين ب 529027 شخص، وهو ما يمثلّ خُمْس (1/5) السّكان، وحتّى ذلك الرّقم لا يبدو حقيقيًّا إنْ نحن احتسبنا ما كان في أحشاء النّسوة الحوامل اللّواتي فارقنّ الحياة.

كما تحدّث الكاتب عن بعض الممارسات الغريبة من قِبَل الإدارة الاستعماريّة في تلك الظروف الاستثنائيّة ككثرة المحاكمات، وامتلاء السّجون بالموقوفين بسبّب حالات "سرقة" لبعض الأشياء من المُعَمرين ونحو ذلك[26]، وهو ما يعني أنّ الإدارة الاستعماريّة بدل أن تعمل على توفير الغذاء للجوعى، راحت تعاقبهم على لُقمة تحصّلوا عليها من هنا وهناك.

تجنّد رجال الكنيسة للتّكفل بالأطفال اليتامى: انطلاقا من مبدأ "مصائب قوم عند قوم فوائد"، هلّلت الكنيسة في الجزائر وعلى رأسها (لافيجري)؛ لِما أفرزته تلك المجاعات من مآسي وتشرُّد لعددٍ كبير من الأطفال اليتامى الذين فقدوا أولياءهم في تلك الفاجعة،حيث كاتب رؤساء تحرير الجرائد الكاثوليكيّة ببعض الدّول الأوربيّة بتاريخ 1 جانفي 1868م قائلا: "منذ عدّة شهور، عدد كبير من العرب لا يعيش إلاّ من حشيش الحقول وأوراق الأشجار التي يكشطونها مِثل الحيوانات"، ويضيف في الصّفحة الموالية: "يذهبون حتّى إلى إخراج جُثّث الحيوانات من تحت الأرض لأكلها، كما يسرقون أخرى من الكولون، الذين يضطرّون إلى حماية مزارعهم والبندقيّة في اليدّ"[27]، وتحدّث لافيجري عن ذلك بشكلٍ عامٍّ، ولم يخصّ جهة بعينها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

وبعد عرْضه للحالة العامّة، أفصح عن هدف مراسلاته، حيث كتب: "إذا لم يُؤخذ هؤلاء الأطفال منّا، كما يهدّد البعض بذلك، فسوف يكون لدينا في بضع سنوات، حضانة خِصْبة لعمّال داعمين ومُؤيِدِين وأصدقاء للاستعمار الفرنسي، ولنَقُلْ صراحةً، بأنّنا سنشهد ميلاد عنصر عربي مسيحي[28]".

وكانت الغاية من تلك الرّسائل المُوَجهة إلى عدّة دول أوربيّة مُطَالبةً المحسنين من المسيحيّين للتّكفّل بمصاريف تربيّة الأيتام العرب في الجزائر، حيث قال: "لقد جئتُ إليكم في ساعة مَهيبةٍ لإفريقيا المسيحيّة، في وقْتٍ تعرف فيه الكاثوليكيّة انتعاشا على هذه الأرض المملوءة بدماء الشّهداء، لقد انضمّت كلّ من الكنيسة وفرنسا لرفع أمجاد الماضي، بإرسالي إليكم كرسولٍ للحقيقة والإحسان والسّلام[29]".

كان التّبنّي (التّكفّل) يدوم بين أربعة إلى خمس سنوات، أو أكثر حسب سنّ الطفل المعني، كما أوضح بأنّ الشّخص الأوربي المهتمّ بالتّبني يتحصّل فورًا على الاسم العربي لليتيم إنْ رغب في ذلك، وكذا تاريخه وصورة عنه، ووعدَهم بتلّقي رسالةٍ منه حينما يتمكّن من الكتابة، وفي انتظار ذلك يتلّقون أخبارًا عنه باستمرار، كما سمح بإمكانية اشتراك مجموعة من الأشخاص في التّكفل بيتيم واحدٍ[30]، كما كان يسمح للأشخاص الذين يقومون بتَبني أحد اليتامى بمنْح اسم مسيحي له يعوّض اسمه العربي، ويُنَادَى به مباشرة.

حصيلة الدّعم الكَنَسي للأطفال اليتامى: انطلاقا من قناعة رجال الدّين المسيحيّين المبنيّة على قاعدة ألاّ تطَوُر للعرب في الجزائر خارج حضن الدّيانة المسيحيّة، أكّد لافيجري قائلا: "إنّ مهمّتنا هي جعْل الجزائر مهدًا لأمّةٍ كبيرة، سخيّة، مسيحيّة، ... فرنسا أخرى... أن ننشرَ حولنا، بهذه المبادرة المتحمسة ...الأضواء الحقيقيّة لحضارة يكون الإنجيل هو مصدرها وقانونها"[31].

كما أشار في ذات السّيّاق إلى النّتائج المعتبرة المحقّقة في الجزائر وخارجها، وذكر عدّة مؤسّسات: (دار الأيتام بمدينة مرسيليا، ومركز سان لوران دولت، ومركز الأطفال المتمدرسون بمدينة نيس بفرنسا، بالإضافة إلى مركز الحراش، والسّيدة الإفريقيّة بمدينة الجزائر، ودار الأيتام الكبرى للبنات بالقبّة، بالإضافة إلى مركزَيْ سان سيبريان بالعطاف على بُعد 40 كلم إلى الشّرق من مدينة الشلف، ومركز (سانت مونيك)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالرّوينة الذي كان يبْعد عن هذا الأخير ب 6 كلم شرقا، هذا بالإضافة إلى مركز مسرغين بمنطقة وهران، أمّا في عمالة قسنطينة، فكانت المراكز تابعة للمؤسّسات الدّينيّة القائمة مباشرة، دون بناء مراكز خاصّة بذلك؛ لأنّ العمالة كان يتركّز بها أكبر عدد من السّكان المسلمين والعدد الأقلّ من الأوربيّين، الأمر الذي قد يُحْرج رجال الدّين المسيحيّين.

وبشكل عام تحدّثت المصادر عن أعداد بالآلاف لهؤلاء اليتامى الذين تمّ استدراجهم إلى مختلف المراكز والمؤسّسات المسيحيّة، إلاّ أنّ الأرقام الحقيقيّة، كما سيأتي لم تصل إلى ذلك الحجم؛ وقد يُفَسّر ذلك بأنّ العائلات (بالمفهوم الواسع) سحبت الأطفال الذين يحملون اسمها، حتّى وإنْ كان الوالدين قد تُوفِيّا، كما قد يُفسّر أيضا بأنّ لافيجري في رسائله تعمّد المبالغة في العدد؛ لكسب أكبر قدر ممكن من المساعدات الماليّة.

ومن خلال معاينة التّقرير الذي طالب حاكم الجزائر العام بتحضيره، بعد أن تمّ تخصيص مبلغ 75000 فرنك في ميزانيّة المستعمرة لسنة 1876م لفائدة المؤسّسات التي تشرف على اليتامى العرب ضحايا مجاعة 1867م والذين تمّ تجنيسهم، وذلك بغاية تزويده بمعطيات دقيقة عن تلك المراكز لتقسيم ذلك المبلغ عليهم، وتضمّنت المعطيات التي طلبها ما يلي[32]:

-عدد، سنّ، ووضعية اليتامى المتجنسين والمتزوجين المتواجدين بالعمالات الثّلاث إلى غاية 31 ديسمبر 1875م.

-عدد، سنّ، ووضعية اليتامى المتجنسين، غير المتزوجين.

-عدد، سنّ، ووضعية اليتامى، غير المتجنسين بعد.

كانت المعطيات التي أُرْسلت من ولاّة العمالات الثّلاث بتاريخ 24 ديسمبر 1875م على الشّكل التّالي[33]:

العمالة	ذكور	إناث	المجموع
الجزائر	237	207	444
وهران	32	54	86
قسنطينة	9	15	24
المجموع	278	276	554

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تجب الإشارة إلى أنّ كلّ الحالات الأولى (المتجنسين والمتزوجين) تركّزت بمنطقة الشلف وضواحيها، حيث تواجدوا جميعا بمركز (سان سيبريان بالعطاف)؛ إذ بلغ عددهم 50 زوجا (أسرة)، بالإضافة إلى 30 طفلا كانوا نتيجة ذلك القِران، كما أنّ المركز كان يضمّ أيضا 39 شخصا (متجنسين بعد تعميدهم)، إلاّ أنّهم غير متزوجين، وهو بذلك يعتبر أنجح مركز بالمفهوم الإستعماري في هذا الجانب، علاوة على وجود 27 حالة من غير المتجنسين وغير المتزوجين بعْد في مركز (سانت مونيك) بالرّوينة ضواحي الشلف.

و تمّ إحصاء 68 حالة من المتجنسين (المعمّدين) المتزوجين من منطقة الشلف وضواحيها من أصل 50 أسرة (100 شخص)، أمّا البقيّة، فكانت من مناطق مختلفة هي: :(سور الغزلان – الجزائر – برج بوعريريج – تلمسان – الأغواط – مستغانم –، وفور ناسيونال (ببلاد القبائل)، ولكن كانت الحالات قليلة، باستثناء منطقة (سور الغزلان) التي وردت منها عشرة (10) حالات.

أمّا القائمة الاسميّة لليتامى الجزائريّين الذين تمّ تمسيحهم في منطقة الشلف على إثر مجاعات 1867م والتي تراوحت سنوات ميلادهم بين سنوات (1849م-1853م) فجاءت كالآتي[34]:

الاسم الأصلي	المنطقة	إ. المسيحي	الاسم الأصلي	المنطقة	إ. المسيحي
الزّهرة بنت الطاهر	تاشتة	كارولين	**رقية بنت الحاج**	تنس	ماريا
بن عيسى بن أحمد	مليانة	فرانسوا	**سعدة بنت عبد القادر**	ثنية الحد	زووي
حليمة بنت الحبيب	تنس	بانجامين	**بوزيد بن العربي**	بني بودوان	جوزيف
محجوبة بنت محمد	العطاف	مارغوريت	**حليمة بنت خليفة**	الشلف	ماجدالين
الطاهر بن عمر	تنس	ماتيو	**جلول بن طويل**	مجاجة	جون

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

حليمة بنت عمر	تنس	بارتيلد	فاطمة بنت موسى	تاشتة	آنّا
عائشة بنت العربي	الشلف	ايزابيل	العربي بن قدور	العطاف	بيار
عائشة بنت أحمد	أبو الحسن	جان	رقية بنت منصور	شرشال	فاليري
الطاهر بن قدور	الشلف	فرانسوا	الحاج بن محمّد	تاشتة	غ. بيار
يحي بن أحمد	مليانة	باسكال	قدور بن طويل	مجاجة	جوليان
أم الخير بنت محمّد	شرشال	جوزيفين	عبد القادر بن محمّد	تنس	فيليب
قدور بن أحمد	الشلف	بروسبار	فاطمة بنت الطاهر	بني بودوان	ايليزا
فطمة بنت أحمد	تنس	لودفين	عبد القادر بن قدور	الشلف	ج. باتيست
زينب بنت عبد الله	مليانة	اولالي	فاطمة بنت الطاهر	الشلف	آلين
قدور بن أحمد	مليانة	شارل	عبد السّلام بن جيلالي	الشلف	جون لويس
علي بن جلول	بني درجين	أنطوان	العالية بنت محمّد	الشلف	باربيتي
محمّد بن جلول	تنس	فيليب	قدور بن محمّد	الشلف	بن جامين
عائشة بنت محمّد	ثنية الحد	ديزيري	العالية بنت محمّد	أبو الحسن	آلزا
بن عبد	عين	جاك	العربي	بني راشد	ألفونس

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الرّحمن	الدّفلى		بلقاسم		
فاطمة بنت قدور	مليانة	جوزيفين	حليمة بنت عبد القادر	أبو الحسن	ماري جان
موسى بن عمر	عين الدّفلى	بارتيليمي	العربي بن عيسى	تاشتة	فرانسوا
محمّد بن بوزكري	تنس	مارسيال	خيرة بنت محمّد	بني راشد	ماري
محمّد بن معمر	تنس	ليون ايتيان	فاطمة بنت معروف	وادي الفضة	أولاليون
فاطمة بنت جيلالي	تنس	ماري كارولين	محمّد بن جيلالي	الشلف	بول أرسلان
فاطمة بنت الميسوم	الشلف	أوسلين	فاطمة بنت عيسى	تنس	أوغستين
محمّد بن صحراوي	العطاف	بول سيبريان	أحمد بن قويد	بني بودوان	لويس
فاطمة بنت خليفة	الشلف	أنطوانيت	مريم بنت أحمد	مليانة	كارولين
سعدية بنت إبراهيم	أبو الحسن	ماري لويز	محمّد بن سعيد	تالعصة	ايزي فور
محمّد بن أحمد	تاشتة	ميشال	عبد القادر بن محمّد	وادي الفضة	سيبريان
محمّد بن أحمد	الشلف	آ. أليكسوندر	حموني بن محمّد	الشلف	مارك
محمّد بن جلول	تاشتة	ليون	عبد الله بن جلول	عين الدفلى	فرانسوا
جمعي بن علي	و. الفضة	فيكتور جون	عبد القادر بن عيسى	بني حواء	ج. أوجان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الطيب	بني بودوان	بول	عمر	تنس	جوليان
محمّد	تنس	آلبار	بن عودة	تاشتة	جيروميمو

Duguerry, Chef des Missionnaires d'Afrique d'Alger, Liste nominative des orphelins arabes mariés et naturalisés français. (s.d). ANOM. GGA. L//53

تجب الإشارة إلى أنّ هؤلاء هم من تجنّس فقط حتّى ذلك التّاريخ في كلّ ربوع الجزائر[35]، كما أنّ الأسماء وردت بالشّكل القديم بحُكم أنّ قانون الحالة المدنيّة الذي أقرّ بالأسماء العائليّة الجديدة لم يَصدر إلاّ سنة 1882م (قانون الحالة المدنيّة)، كما أنّ عملية تغيّير دين وأسماء هؤلاء تمّت خلال سنتي (1874م-1875م).

النّتائج:

- في مقدمة ما يمكن استنتاجه مع نهاية هذا البحث هو حجم أنانيّة وقساوة المستعمر، الذي عمل بشتّى الوسائل على تجريد الجزائريّين من وسائل عيشهم بشكل كريم، وتركهم فريسة سائغة وسهلة للمجاعات والأمراض القاتلة، الأمر الذي انتهى باختفاء خُمْس سكان البلاد في ظرف قياسي (1867م-1868م).

- لم تهتمّ الإدارة الاستعماريّة برفع الغُبن عن السّكان بشكل ناجع ونافع؛ بل تركت الكهول والشّيوخ من الجنْسين يواجهون مصيرهم المحتوم، أمّا الكنيسة، فلم تهتمّ إلاّ بالأطفال اليتامى، ولم يكن ذلك من بابٍ إنساني؛ بل لأمر في نفس يعقوب، فالفرصة ثمينة، ولا يجب تضيّيعها بنظر لافيجري وغيره.

- إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة مارست في الجزائر دورًا استعماريًا أكيدًا، الأمر الذي تُثبته الوثائق المتوفرة، ولكن لا يمكنّنا إبداء ذات الحكم على كلّ الفترة الاستعماريّة في غياب ما يثبت ذلك، وفي ذات الوقت لا يمكنّنا نفْيُه أيضا انطلاقا من ذات المنطق.

- لم يكن حجم المُجَنّسين (المُنَصّرين) في الجزائر عقب مجاعات 1867م-1868م كبيرًا، كما قد يعتقد البعض، حيث أنّ عددهم إلى غاية 1876م لم يَفُقْ 100 حالة (50 أسرة) أنجبت 30 طفلا، أمّا مجمل الذين كانوا لا يزالون بمختلف المراكز والمؤسّسات الدّينيّة المسيحيّة، إلى غاية ذات الفترة لم يتعدّ 554 حالة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

- إنّ الأطفال اليتامى، رغم حداثة سنّهم، إلاّ أنّهم تمكّنوا من مقاومة الخطاب المسيحي وممارسات الرّهبان، بالنّظر إلى العدد الكبير الذي نُقِل منهم إلى مختلَف المراكز الدّينيّة؛ بل أنّنا نُسجل حالة فرار (في الغرب الجزائري) من القبضة المسيحيّة، حتّى بعد عدّة سنوات من المجاعات.

- أدرك رجال الدّين المسيحي، من دون شك، بأنّ تحويل الشّعب الجزائري عن مُعتقَدِه الرّاسخ، والمتجذّر ضرب من الخيال، ولا يعدو أن يكون أمنيّة فحسب، وتيقّنوا بأنّ الكنيسة، في ظلّ هذه المعطيات،لا يمكنها أن تقوم بأيّ دور استعماري فعّال بعد ذلك.

- تحوّلت الاستراتيجيّة الاستعماريّة من الارتكاز على الكنيسة إلى التّشبث بالمنظومة التّربويّة لبلوغ الأهداف الاستعماريّة عن طريق المدرسة، التي وإنْ بدأت قبل ذلك، إلاّ أنّ هذه القناعة تأكّدت أكثر بعد مجاعات نهاية ستينيّات القرن 19.

- كان العامل الدّيني أسّاسي في المنظومة الاستعماريّة، حيث بمجرد أن عُمّد (محمّد، أو أحمد) تحوّلت نظرة المستعمر إليه جذريًّا، بحيث بات مستوطنًا كباقي الأوربيّين، ومُنحت لهم أراضي تفوق 20هكتار.

- رغم أنّ ما كتبه العنتري، وأكّده القساوسة والرّهبان عن بعض ممارسات الجزائريّين التي تثير الازدراء والاشمئزاز، إلاّ أنّ ذلك يجب ألاّ يبعث على الخجل؛ لأنّهم دُفِعوا إليها دفْعًا من قِبَل منظومةٍ استعماريّة ظالمة مستبدّة وجائرة.

- أظهر الجزائريون رغم الفاقة والجوع سُمُوّا أخلاقيًّا ورفعة إنسانيّة واحتراما لبعضهم البعض أحياءً وأمواتًا؛ فلم تُؤْكَل الميْتة الحيوانيّة ولا البشريّة، رغم بعض الكتابات الأوربيّةالمتحاملة.

الهوامش:

(1).للمزيد عن الموضوع، ينظر :

Pierre Gourinard, Les Royalistes en Algérie de 1830 à 1962 : de la colonisation au drame, Collection Xénophon, Atelier Fol' Fer, Anet, France, 2012, p. 23.

(2).Chambre de Commerce de Marseille, (C.M-MQ52/03).Mandement de monseigneur l'évêque de Dijon, relatif à la prise d'Alger : 17 Juillet 1830.

(3).Ibid.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(4).Discours prononcé par L'Archevêque d'Aix, le 10 juillet 1830, à l'occasion de la prise d'Alger. Voir : Pierre Gourinard, Les Royalistes en Algérie de 1830 à 1962, de la colonisation au drame, Editions Atelier Fol'Fer, Paris, 2012, p.296.299.
(5).Mandement de l'évêque de Dijon Jacques Raillon, qui ordonne de chanter le Te Deum,(C.C.M.) op., cit.
(6).Mandement de Louis-Antoine-Augustin Pavy, évêque d'Alger, le 1er janvier 1848à l'occasion de la soumission d'Abd-El-Kader, voir : Pierre Gourinard, op., cit, p.300.
(7).Mandement de Louis-Antoine-Augustin Pavy, évêque d'Alger, le 1er janvier 1848, op., cit.
(8).Marcel Richier, « La Vigne en Algérie »,Illustration Algérienne, Tunisienne et Marocaine, n :32, du 6 juillet 1907.

(9).رغم ذلك الإجراء، إلاّ أنّ (ايميريت) أشار إلى وجود صراع كبير بين العسكريّين ورجال الكنيسة في تلك الفترة. للمزيد ينظر:
Marcel Emerit, **La lutte entre les généraux et les prêtres au début de l'Algérie française,** in : Revue Africaine, volume 97, année 1953.p.66-97.
(10).Louis Baudicour, La Colonisation de l'Algérie : Ses éléments, Editions Jacques Lecoffre et Cie, Paris, 1856, p.54.

(11). حيث أداروا ظهورهم جميعا للقانون المشْيَخي الصادر سنة 1865م الذي مكّنهم من الجنسيّة الفرنسيّة بشرط التّخلّي عن الأحوال الشّخصيّة، كما أنّهم عزفوا وإلى وقت طويل عن التّردّد على المدارس الفرنسيّة والمصحّات الفرنسيّة ظنًّا منهم بأنّها مؤسّسات ذات بُعد ديني مسيحي.

(12).صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تقديم وتحقيق: رابح بونار، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1974م، ص 15.

(13). العنتري، مصدر سابق، ص. 17؛ ---(14)نفسه؛---(15).نفسه، ص 18 .

(16).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, op., cit, p. 30.---(17).Ibid, p. 32.---(18).Ibidem.
(19).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, op., cit, p. 33.---(20). Ibid, p. 38.
(21).L'Abbé BURZET, **Histoire des Désastres de l'Algérie (1866- 1867- 1868),** Imprimerie Centrale Algérienne, Alger, 1869.--(22).Ibid, p. 82.--(23). Ibidem, p. 83.
(24).Paul Blanc, **La vie de colon en Algérie**, Imprimerie de la Vigie Algérienne, Alger, 1874, p.86.
(25).Ibid, p.88.--(26).Paul Blanc, op., cit. p.90.
(27).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, sur les œuvres et missions africaines, Typographie de Henri Plon, Paris, 1869. p. 27.---(28).Ibid, p. 41.
(29). Charles- Martial Allemand- Lavigerie, Archevêque d'Alger, délégué apostolique du Sahara et du Soudan, **Recueil de lettressur lesœuvres et mission africaines**, Typographie de Henri Plon, Paris, 1869, p.7.---(30)؛ L'Archevêque d'Alger, **Orphelins Arabes d'Alger, leur passé, leur avenir, Leur adoption en France et en Belgique**, Librairie Classique d'Eugène Belin, Paris, 1870, p. 6.---(31).Recueil de Lettres publiés par l'Archevêque d'Alger, op., cit, p. 14.
(32).Le Directeur général des affaires civiles et financières, Rapport au Gouverneur Général civil, sur la situation au 31 décembre 1875, des orphelins arabes de la famine de 1867, dans les trois départements, Alger le 17 mars 1876. ANOM. GGA. L//53.
(33). Ibid.
(34).Duguerry, Chef des Missionnaires d'Afrique d'Alger, Liste nominative des orphelins arabes mariés et naturalisés français. (s.d). ANOM. GGA. L//53

(35).إنْ نحن استثنينا منطقة القبائل، حيث كان ينشط الآباء البيض منذ فترة، والتي لم تكن معنية بمجاعات 1867م حسب المصادر، وبذلك لم تشهد حالاتًا يُتم، ممّا يفسّر عدم وجود مراكز دينيّة في هذا الإطار.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com